**الفكر الجزائري المعاصر ــ محمد البشير الإبراهيمي نموذجا ــ**

إن الدارس لتاريخ الجزائر يصل إلى معرفة ما عانته من ويلات همجية الاستيطان الفرنسي، وسعيه لطمس سمات الهوية الجزائرية عبر قرن وثلث من الزمن، استخدم لذلك شتى أنواع الوسائل بغية الوصول إلى المسخ المنشود، لكن قيض الله عز وجل من أبناء الجزائر من يحمل على عاتقه جهد التصدي لهذا التشويه، وكان الشيخ الإمام البشير الإبراهيمي من بين الذين عرفهم تاريخ الجزائر ناشطين للحفاظ على معالم الهوية الجزائرية العربية الإسلامية الأصيلة، ساعين لدحض كل ما كان يحيكه الاحتلال وأعوانه للقضاء على الشخصية الجزائرية.

**أولا: من هو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ؟**

ولد البشير الإبراهيمي يوم 14 يونيو1889م، في قرية رأس الوادي بالشرق الجزائري ونشأ في عائلة عريقة في العلم. بدأ في حفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمره على يد عمه الشيخ المكي الإبراهيمي، الذي كان له الفضل الأكبر في نشأته وتربيته. في التاسعة من عمره أتم حفظ القرآن، بعد وفاة عمه تولى تدريس طلبته وهو في الرابعة عشرة من عمره، وظل على ذلك حتى بلغ العشرين. في أواخر 1911 هاجر إلى المدينة المنورة على إثر والده متخفيا، خوفا من بطش الاحتلال الفرنسي، ومر في طريقه بالقاهرة وحضر فيها عدة مجالس علم في الأزهر. بعد وصوله المدينة المنورة التقى بالعلامة عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الإصلاحية بالجزائر. في 1931 تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأصبح البشير الإبراهيمي نائبا لرئيسها العلامة عبد الحميد بن باديس، وفي عام 1933 اختار ولاية تلمسان في الغرب الجزائري لممارسة نشاطه، وفيها أنشأ مدرسة "دار الحديث" عام 1937. نفته السلطات الفرنسية عام 1940 إلى منطقة أفلو بالجنوب الغربي للجزائر، وبعد أسبوع من نفيه مات الشيخ بن باديس، وتم انتخابه رئيسا لجمعية العلماء المسلمين وتولى رئاستها عن بعد لمدة ثلاث سنوات، إلى حين إطلاق سراحه عام 1943. في عام 1945 زُجّ بالإبراهيمي في السجن العسكري الفرنسي ولاقى ألوانا من التعذيب، وبعد إطلاق سراحه في 1946 أنشأ جريدة البصائر وتولى رئاسة تحريرها، كما أسس معهدا ثانويا أطلق عليه اسم معهدعبد الحميد بن باديس. مع اندلاع ثورة التحرير الجزائرية في 1954، وجه نداء للشعب الجزائري لدعم الثورة المسلحة. وبعد الاستقلال في 1962 اضطر للتقليل من نشاطه بسبب

تدهور صحته وسياسة الحكومة التي حاصرت الشخصيات الإسلامية، وكان من أبرز نشاطاته إلقاء أول خطبة في جامع كتشاوة وسط العاصمة بعد الاستقلال. في 16 أبريل 1964 أصدر بيانا انتقد فيه تخلي الحكومة عن المبادئ الإسلامية في عهد الرئيس أحمد بن بلة، فصدر قرار بوضعه في الإقامة الجبرية وبقي كذلك إلى أن وافته المنية يوم 20 مايو 1965.

**ثانيا: مؤلفات محمد البشير الإبراهيمي**

ترك البشير الإبراهيمي العشرات من المؤلفات منها: كتاب آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله: أحمد طالب الإبراهيمي، كتاب شعب الإيمان، كتاب حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام، كتاب الاطراد والشذوذ في العربية ، كتاب أسرار الضمائر العربية ، كتاب الأخلاق والفضائل ، وله "ملحمة شعرية" في تاريخ الإسلام، تضم نحو 36 ألف بيت.

**ثالثا: فكر محمد البشير الإبراهيمي**

إن الإبراهيمي ليس مجرد مصلحا اجتماعيا أو أديبا متميزا فقط ، بل يعتبر معلما كبيرا ومربيا عظيما، حيث اهتم بالجانب التربوي في كتاباته، وحدد المقومات الأساسية لعملية التربية، بداية بالمعلم وقد أولاه عناية خاصة باعتباره مربيا للأجيال، كما اعتنى بالطالب أو المتعلم لأن صلاح أي مجتمع ونجاحه متوقف على نوعية التربية التي تقدم إلى الناشئة، بالإضافة إلى عنايته بالمادة العلمية التي يجب أن يتلقاها طالب العلم، وأخيرا عنايته بالطريقة والمنهج، حيث بين الإبراهيمي أن الطريقة الناجحة والمنهج الصحيح هو الذي يقوم على مبدأ الربط بين الهدف والسلوك.

**1. التربية والتعليم:** ينظر الإبراهيمي إلى أن الغاية من التربية هو إعداد الأفراد للحياة من خلال الدعوة إلى بناء عقولهم ونفوسهم وتنمية مواهبهم الفطرية وتنشئتهم على صحة الإدراك ودقة الملاحظة حيث يقول: " أنتم حراس هذا الجيل – الخطاب موجّه إلى المعلمين – والمؤتمنون عليه والقوامون على بنائه، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة، وابنوا نفوسه على صخرة من الفصائل الإنسانية … ربوهم على استخدام المواهب الفطرية ، وعلى صدق التصور وصحة الإدراك ودقة الملاحظة".

والتعليم عنده وسيلة والتربية غاية، والغاية تسبق الوسيلة عند بناء الخطة ، ولكن لا بدّ منهما معاً (الوسيلة والغاية)، ويبرز هذا الأمر من خلال بيان دور الطريقة البيداغوجية التي تستخدم في التبليغ ، وعلاقة المواد الدراسية بالمتعلم، وبحاجاته، والمسئولية الملقاة على كاهل المعلم، الذي يجب أن يعي دوره الحقيقي ويتجاوز تلقين المعرفة إلى ممارسة الفعل حيث يتجّه إلى تربية العقل وتزكية النفس، وتهذيب الوجدان، وصقل الذوق، وتقويم الأخلاق، ونجد هذا التصوّر واضحاً في أقواله التي يوجّه بها المعلمين، ومنها قوله : "احرصوا على أن تكون التربية قبل التعليم ، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم ، وهي أنّ الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته من نقص العلم ، وإنّما خاب أكثر ما خاب من نقص الأخلاق". ونظرته إلى التعليم تحدد ما ينبغي أن يتجه إليه الجهد المدرسي، فالاهتمام بنوع الأثر الذي تحدثه المعلومات المقدمة للتلاميذ أهم وأولى من كثرة المعلومات التي تحشى بها أذهانهم، ونجد هذا الطرح التربوي واضحاً لدى الإبراهيمي في تحديده للخطة التعليمية التي اتفق مع ابن باديس عليها ، يقول في هذا الصدد : "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في المدينة المنورة في تربية النشء هي أن لا نتوسع له في العلم ، وإنّما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل" .

**2. نظرة الإبراهيمي إلى المعلم**: المعلم هو الركن الأساسي في العملية التربوية، لأنّه مصدر المعرفة والأداة الناقلة لها، وعليه يتوقف نجاح ما تبذله المدرسة من جهد، لذا وجّه الإبراهيمي اهتمامه للمعلمين وحدد لهم الأساليب التي تجعلهم مستوعبين المهام المنوطة بهم، قادرين على أدائها عالمين بواجباتهم في مجال التعامل مع الأطفال . يقول الإبراهيمي: " إنّ من الطباع اللازمة للأطفال أنهم يحبون من يتحبب إليهم، ويميلون إلى من يحسن إليهم، ويأنسون بمن يعاملهم برفق، فواجب المربي الحاذق، إذا أراد أن يصل إلى نفوسهم من أقرب طريق أن يتحبب إليهم ويقابلهم بوجه متهلل، ويظهر لهم من الحنان والعطف ما يحملهم على محبته، فإذا أحبوه أطاعوه ، وإذا أطاعوه وصل إلى توجيههم إلى ما يريد …. فإذا ملك نفوسهم حبب إليهم المدرسة والقراءة والعلم".

ومن التوجهات البيداغوجية التي تصلح أن يجعلها المعلمون دليلهم في العمل المدرسي هي أنّ الأهم في عملية التدريس هي الروح التي تسود الحصص التعليمية، والعلاقة التي تربط المعلم بالمتعلم، يقول في هذا الشأن : "ليس المهم المادة العلمية التي يفرضها البرنامج والكتب، إنّما المهم هو ما تفيض به نفوس المعلمين على نفوس تلاميذهم من أخلاق طاهرة قويمة، يحتذونهم فيها، ويقتبسونها منهم، وما يبثّونه في

أرواحهم من قوة وعزم، فلو كانت البرامج تكفي في التربية لكان كل عالم مربياً" ويعني بذلك أنّ هناك فرقاً بين الذي يمتلك المعرفة وبين المربي الذي يعرف كيف يقدم المعرفة، ويتعامل مع المتلقين للمعرفة .

**3. نظرة الإبراهيمي إلى الطالب:** خاطب الشيخ الإبراهيمي طلبة الجزائر وبين لهم أن:« الحياة قسمان: حياة علمية وحياة عملية، وإن الثانية منهما تنبني على الأولى قوة وضعفا، وإنتاجا وعقما، وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كله». و حثّهم على عدم الاكتفاء بالكتب المدرسية، والاطلاع على غيرها من الكتب حتى تتسع مداركهم :« لا تقنعوا بالكتاب المقرر، واقرأوا غيره من الكتب السهلة المبسوطة في ذلك العلم، تستحكم الملكة ويتسع الإدراك، فوطنوا أنفسكم على ذلك من الآن، وروضوها على اختيار النافع المفيد من الكتب، لا تقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع الأزقة إلا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني، ولا في الجلوس في المقاهي إلا بقدر ما تدفعون به الملل والركود، ولا في قراءة الجرائد إلا بقدر ما تطلعون به على الحوادث الكبرى، خذوا من كل ذلك بمقدار، ووفروا الوقت كله للدرس النافع والمطالعة المثمرة»

وقد وجه الشيخ الإبراهيمي نصيحة للطلبة، حيث خاطبهم قائلا:« احفظوا كل ما يقوي مادتكم اللغوية وينمي ثروتكم الفكرية، ويغذي ملكتكم البيانية، والقرآن القرآن، تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة، وربوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد، وعلى الاستشهاد به في الدين والأخلاق، وعلى الاستظهار به في الجدل، وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون»

كما أراد الإبراهيمي أن يبيّن للطلبة أن الوطن هو بحاجة إلى جيل قوي متمسك بالعلم:« إن الوطن يرجو أن يبني بكم جيلا قوي الأسر، شديد العزائم، سديد الآراء، متين العلم، متماسك الأجزاء، يدفع عنه الفوضى السائدة في الآراء، وهذا الفتور البادي على الأعمال، وهذا الخمول المخيم على الأفكار، وهذا الاضطراب المستحكم في الحياة، وهذا الخلاف المستمر على السفاسف، فإذا جاريتم هذه الأهواء المتباينة، واستجبتم لهذه الأصوات المتنافرة، ضيعتم على الوطن جيلا، وزدتم في بلائه ومحنته، وأطلتم مدة المرض بتأخير العلاج. لا يعذلكم في حب وطنكم إلا ظالم، ولا يصرفكم عن إتقان وسائل النفع له إلا أظلم منه، أنتم اليوم جنود العلم فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل»

**4. الغايات التربوية التي رسمها الإبراهيمي** : لقد حرص الإبراهيمي على توجيه اهتمام المعلمين والعلماء العاملين في حقل تكوين الإنسان ونشر المعرفة إلى جملة من الغايات منها:   
 ـــ تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا.

ـــ الدفاع عن الهوية الجزائرية.

ــ إحياء مجد اللغة العربية وآدابها وتاريخها.

ــ تذكير المسلمين بحقائق دينهم ، وسير أعلامهم ، وأمجاد تاريخهم.

ـــ ضرورة إحياء مجد الدين الإسلامي، بتصحيح أركانه الأربعة : العقيدة ، العبادة ، المعاملة ، الخلق .

ـــ توجيه الاهتمام إلى إنشاء جيل قرآني يتقن حفظ القرآن وأداءه ويحسن فهمه والعمل به .